

واقع علم الاستغراب في العالم العربي، آفاق ما بعد الكولونيالية وتحديات العولمة.

The Reality of Orientalism in the Arab World: Postcolonial prospects and the challenges of globalisation.

حنان بن قيراط.¹

¹ جامعة 8 ماي 1945، قلمة (الجزائر)،

Benkirat.hanane@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2026/01/11 تاريخ القبول: 2026/04/29 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

يسعى علم الاستغراب لإعادة تشكيل الهوية العربية والانتماء للحفاظ على الهوية الأصيلة كي لا تنجرف مع زيف ومُغريات الحضارة الغربية التي تؤثر فيها كثيرًا وفي فكر الإنسان العربي وثقافته وسلوكه... وقد كان للتداعيات الخطيرة التي شهدها العالم العربي في ظلّ تصاعد الاهتمام بالغرب وحضارتهم أثرٌ كبيرٌ لأنّ ينتبه لها النقّاد والدارسون وتبيّن انعكاساته والتحذير من مخاطره.

ولأنّ مثل هذا الموضوع لا يخلو من امتداداتٍ تاريخيةٍ وجغرافيةٍ تُشكّل بؤرة الهوية العربية، ويركن إلى إيديولوجياتٍ مُكدّسةٍ تشكّل واقعنا في ظلّ مخاطر العولمة التي يتّنا نشهد تأثيراتها العميقة في مختلف المجالات، فقد حاولتُ هنا تحليل واقع علم الاستغراب في العالم العربي في سياق ما بعد الكولونيالية وتحديات العولمة من خلال تفكيكٍ تدفّق أنماط الهيمنة الثقافية الغربية وإعادة بناء العلاقة بين الذات العربية والآخر الغربي على أسسٍ أكثر توازنًا، وتسعى لإعادة ترسيخ حوارٍ حضاريٍّ نقديٍّ يعزّز الهوية الثقافية العربية بعيدًا عن التبعية أو الانغلاق. كلمات مفتاحية: علم الاستغراب، الهوية الثقافية، العالم العربي، ما بعد الكولونيالية، العولمة.

Abstract:

Occidentalism seeks to reshape Arab identity and cultural belonging in order to preserve its authenticity and prevent it from being swept away by the illusions and temptations of Western civilization, which have profoundly influenced Arab thought, culture, and behavior. The serious repercussions witnessed in the Arab world amid the growing fascination with the West and its civilization have drawn the attention of critics and scholars to the necessity of examining these phenomena, revealing their implications, and warning against their potential dangers.

Given that this issue is deeply intertwined with historical and geographical extensions that constitute the core of Arab identity, and is grounded in accumulated ideologies that have shaped contemporary Arab reality—particularly in light of the challenges of globalization and its far-reaching impacts across various fields—this study attempts to analyze the status of Occidentalism in the Arab world within a postcolonial context and under the pressures of globalization. This is achieved through deconstructing the flow of Western cultural hegemony and reconstructing the relationship between the Arab self and

the Western Other on more balanced foundations, with the aim of reestablishing a critical civilizational dialogue that reinforces Arab cultural identity without falling into dependency or isolation.

Keywords: Occidentalism, Cultural Identity, the Arab World, Postcolonialism, Globalization.

*المؤلف المرسل: حنان بن قيراط.

1. مقدمة:

شهد العالم بعد الحرب العالمية الثانية تحولات جذرية كان لها أثر عميق في تبلور مفاهيم جديدة فيما ارتبط منها بعلاقات الغرب بالشرق، والأكثر من ذلك علاقته بالعالم العربي. ولا شك أن مثل هذه التحولات قد إزدادت عمقاً بعد اعتلاء الغرب عرش التطور الذي قلب الموازين لصالحه خاصة مع استحداث النظام العالمي الجديد والفكر العولمي، وبعدها زاد انتشاره وتطبيق مبادئه على مختلف الأصعدة كما يشهد التاريخ.

وهذا ما شكّل مدخلاً جديداً لإرساء أسس وقواعد علم الاستغراب عند العرب، كما لا يخفى علينا أن الحركات التحررية التي شهدتها كثير من الدول الأفريقية قد جعلتها تخرج لفضاءات أرحب سعياً لإعادة التكوين والتجديد، متأثرة في ذلك بكبرى التيارات في العالم وخاصة العولمة.

وهدفنا من هذا البحث، هو رصد مجموعة من رؤى الفكر العربي في ظلّ علم الاستغراب وتصوّراته بما ينعكس على واقع العالم العربي، من خلال الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

- ما هي القضايا التي اهتم بها الاستغراب التي شكّلت أجندة الاهتمامات العامة وما كان مصيرها بعدما شهدها العالم العربي من حركات تحررية استعمارية وفكرية؟

- كيف أثّرت الانعكاسات والتحولات العالمية على الوطن العربي؟

- كيف كان تعامل العرب معها وتمكينهم للمساهمة بدورٍ فعّالٍ في صياغة كلّ ما استجدّ على السّاحة العالمية في مختلف المجالات؟

- إلى أيّ مدى تحقّق الهدف من الاستغراب؟

- ما هي الآثار المحتملة مستقبلاً في ظلّ السعي لتحقيق مبادئ وأسس علم الاستغراب؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات سنحاول التركيز على مجموعة نقاط هامة نتبين فيها مفاهيم علم الاستغراب ومعرفة نتائجه المرجوة في ظلّ التحديات العالمية الكبرى، سواء أكان ذلك مرتبهاً بالفكر ما بعد الكولونيالي أم الفكر العولمي أم حتّى في مرحلته الراهنة وما يمكن أن يُحتمل مستقبلاً.

2. مفهوم علم الاستغراب Occidentalism:

الاستغراب -في عمومها- كلمة مشتقة من الغرب، وترتبط بغروب الشمس، وأصل الاشتقاق في اللغة العربية يدلّ على طلب الشيء؛ أي أنّه يعني طلب الغرب، ومنه طلب علوم الغرب، والمستغرب هو من تبخر في علوم الغرب وآدابه وفكره وحضارته...هو مصطلح جديد لمفهوم وتصوّر قديم في محتواه وطرقه، كونه يرتبط بعلاقة الشرق بالغرب أو بالآخر مهما كانت طبيعة جنسهم، خاصة منهم المسيح واليهود. وهو: " من عناصر التلاقي والتعارف

والتعاون والتحالف والتعايش بين الأمم، على اعتبار أنّ هذه المفهومات هي من أسرار الوجود في هذا الكون الذي أراد الله تعالى لخلقه فيه أن يعمره ويُسَخِّلَها عليه" (النملة، 1436، صفحة 10). وقد فهم العرب منذ مجيء الإسلام ضرورة وأهمية مدّ جسور التواصل مع الشعوب الأخرى للاستفادة منهم ومن خبراتهم وثقافتهم، كما نصّت الآية الكريمة: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات). وبذلك انفتح المسلمون الأوائل على الشعوب الأخرى وتواصلوا معها وأخذوا عنها كلّ ما يفيدهم وما يتماشى وروح الإسلام لتطوير الحضارة الإسلامية بما يعود بالنفع على الجميع.

ويرتبط علم الاستغراب ببروز أفكار ثقافية تنبئ محاكاة الغرب في علومهم وثقافتهم وعاداتهم وآدابهم من خلال: " الميل نحو الغرب والانهار به ومحاكاته، نشأت في المجتمعات غير الغربية سواء أكانت إسلامية أم لا، على إثر الصدمة الحضارية التي أصابتها قبيل الاستعمار وخلالها" (بخوش، 2020، صفحة 241). ثمّ تطوّر ليُعبر عن حقل معرفي خاص، وعُدّ محاولة معرفية نقدية لدراسة الغرب من منظور عربي-إسلامي، بوصفه ذاتاً تاريخية وثقافية وفكرية، وليس مجرد نموذج يُحتذى أو يُرفض. وقد ظهر هذا الحقل كدرّ فكري على الاستشراق، وسعيًا إلى إعادة التوازن في العلاقة المعرفية بين الذات العربية والآخر الغربي.

وقد كان للمفكر حسن حنفي فضلٌ كبيرٌ في لفت النظر إليه في كتابه مقدّمة في علم الاستغراب، فيكون مواجهًا للتغريب. وإن كان هناك من تحدّث عنه في بداياته مثل: إدوارد سعيد، مصطفى صادق الرافعي، رفاة الطهطاوي، علي السرطاوي، الشيخ الإبراهيمي، محمّد الغزالي، محمّد قطب... 3. إشكالية علاقة علم الاستشراق بعلم الاستغراب:

لا بدّ من التفريق أولاً بين مصطلحي الاستغراب والتغريب: " إذ إنّ الاستغراب هو دراساتٌ علمية وفكرية وثقافية للغرب، أمّا التغريب فإنّما هو تقمّص الفكر الغربي وثقافته وآدابه على حساب الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية والعربية، وما نتج عنها من آداب وفنون واجتماع واقتصاد وسياسة" (النملة، 1436، صفحة 45، 46). ولأنّ علم الاستغراب يهتمّ بمعرفة الآخر وتحليله، فإنّ التغريب يهتمّ بدراسة تأثير الغرب على العرب بثقافتهم ولغتهم وسلوكاتهم وجعل العرب يبتعدون عن أصلهم ودينهم تحت تأثير ما أصبحنا نراه مع العولمة والهجرة...

وقد يكون من المفيد بدايةً التذكير بأنّ الاستغراب لم يبدأ من فراغ، بل له مقدّماتٌ أوليةٌ تصّله بنتائج الاستشراق، بما يشكّل استمراريةً لتطوّر هذه العلاقة في البلاد العربية ويعكس ما حدّث فيها؛ ففي ظلّ اجتياح الفكر الاستشراقي ظهرت فكرة محاولة قيام حركة فكرية تواجه الاستشراق وتُعنى بالغرب ثقافة وفكرًا وأدبًا وتطوّرًا علميًا، فكان تأسيس علم الاستغراب: " ليباشر وضع قواعد وآلياتٍ للتعامل مع المنجز الغربي والاستفادة منه، والأخذ بأسباب القوة، دَفَعَ كثيرًا من المفكرين للدعوة إلى قيام علمٍ يكون مهمومًا بذلك، ويستطيع مجاراة التغيّرات الإيجابية ومواكبتها" (العيان، صفحة 460). ولعلّ من أهم أسباب ظهور علم الاستغراب هو تفاقم حضور التاريخ الأوروبي المزدهر في وعينا العربي، بما جعلنا نعيش زمنًا مترامي الأطراف لأنّه ليس بزمنا القائم على الإسلام الأصيل، في زمنٍ تسعى فيه المركزية الأوروبية إلى طمس تاريخ الحضارات الشرقية والقضاء على أصولها.

ولأنّ علم الاستغراب يهدف إلى فكّ عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر والقضاء على مركّب العظمة لدى الآخر الغربي لغةً وثقافةً وعلمًا كما يقول حسن حنفي، فقد سعى لإنهاء أسطورة الغرب الذي نصّب نفسه رأس الإنسانية بتاريخه وثقافته وحضارته التي تسعى إلى الهيمنة العالمية واستبعاد كلّ ما لا ينتسب لها، وبذلك اهتّم علم الاستغراب برصد التحوّلات العالمية الكبرى وما آلت إليه الأوضاع العربية، وسعى لتمثيل مقدّمات وإرهاصاتٍ لبروز تكتّلٍ جديدٍ في صورة مبدئية يستشعر تفاعلاته مع الغرب، وتمهّد الطريق للعرب لدخول عالمٍ جديدٍ أيضًا، فضلًا

عن أنّه أمل أنّه سيُعيد لهم استحداث بدائل حضارية وفكرية، وهو الأمر الذي يستدعي اللحاق بالركب الحضاري والتأثير في مختلف الاستراتيجيات التي أصبحت فاعلة، خاصة في ظلّ الثورة الهائلة التي مسّت ميادين الاتصالات والمعلومات المختلفة.

كما كان التخلّص من عقدة النقص والضعف في التعامل مع الغرب، من أولى مهمّات علم الاستغراب الذي سعى إلى: "إعادة كتابة الكثير من المفاهيم المختلفة والقراءات التاريخية، وغيرها من المجالات التي انطلقت من المركزية الغربية، وإعادة عرض التاريخ والمفاهيم باستقلالية عن النظرة الغربية" (العيان، صفحة 457). ولعلّ هذا ما قصده حسن حنفي عن خطورة تمثّل مظاهر الآخر فينا برؤية صورته في ذهننا، وبدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر، لذلك كان الآخر متعدّد المرايا وظهر أيضًا الأنا متعدّد الأوجه، وبرزت أكثر علاقة الأنا بالآخر: "ففي الوقت الذي ترغب فيه الأنا التحرّر من الآخر في إبداعاتها بالرغم من إحالة الآخر لهذه الإبداعات إليه، فإنّ الأنا يضطرّ لا محالة لاستعمال ثقافة الآخر كأمثلة وكماذبة تحليلية حاضرة في وعيه وفي وعي الآخرين" (حنفي، 1991، صفحة 48).

ومؤدّي ذلك أنّ الملامح التي ترتبط بانعكاسات الاستشراق ومختلف التطوّرات العالمية يمكن أن نتلمّسها اليوم وأكثر من ذي قبل، في نطاق تحديات الفكر العولمي الذي غيّر الكثير من المفاهيم عند الغرب كما العرب: "الأمر الذي جعل أفكارنا ومفاهيمنا عن الظواهر والأشياء تتأثّر إلى حدّ بعيد بالأحداث الجارية والتطوّرات المتلاحقة على امتداد هذا العالم" (هلال، 1995، صفحة 13).

والواقع يبيّن عجز العرب عن استيعاب كلّ ما يحصل في ظلّ هذه الثورة والمتغيّرات بسبب زيادة تهميشهم، وإن سعوا لإعادة صياغة وضبط منطلقاتهم الخاصة التي تتماشى ومبادئهم ومقوماتهم من أجل استحداث أسس جديدة لتخدم مصالحهم أيضًا، أو بتشكيل خارطة عربية للعلاقات السياسية والاقتصادية بينهم فقط، للوقوف في وجه القوى الغربية المهيمنة كما يظهر مع جامعة الدول العربية... لكن كانت مختلف محاولات التنمية تجارب متعثّرة واجهت العديد من المشكلات والأزمات خاصّة مشكلة الهوية والانتماء العربي والتكامل القومي، وما ترتّب عنها من زيادة تفاقم الأوضاع القومية التي تهدّد بالتفتّت وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقومي والأمني...

4. تأثير العولمة في علم الاستغراب في ظلّ سقوط الإيديولوجي وبروز الثقافي:

حدّدت العولمة بانتشارها طبيعة العلاقات بين الدول لاسيما مع العالم العربي وفق أنساقٍ معيّنة جعلتها علاقات تعاونية أو صراعية، وكانت الأساس في توجيه حركة الأحداث في العالم ككلّ. وفي ضوء التحوّلات العالمية، إلى أيّ مدى يمكن الحديث عن واقع الاستغراب في ظلّ ما يحدث من رهانات مستقبلية لها تأثيرها السلبي على العالم العربي؟

لا شكّ من تأثير التحوّلات العالمية في علم الاستغراب العربي، بما شكّل شعورًا بالحنين القويّ لجعل الاستغراب يسير نحو أعتاب مرحلة جديدة وحاملة باستعادة أمجاد الماضي والاستفادة من التآثر بالتطوّر الحضاري الغربي. وقد شكّلت نتائج الاستغراب محصّلةً لسلسلة من التراكمات والمتغيّرات التي حدثت منذ بداية القرن 20م كوحدة من مخلفات الفكر الاستشراقي في البلاد الغربية التي استلهمتها مع نتائج الثورة الصناعية والحركات الاستعمارية في البلاد العربية.

ومن هنا بدأت أفكار علم الاستغراب من منظورٍ شاملٍ يسعى للاندماج في خريطة التطوّر العلمي الذي أصاب الغربيين، والأخذ بأسبابه وتأثيراته وتفاعلاته الكبرى من جديدٍ لتطوير الوطن العربي. كما بدأت تحديات علم

الاستغراب التي اقتصرَتْ بالبحث والدراسة في الجانب الفكري والثقافي من جانبٍ نظريٍّ فحسب، بعيداً عن مواجهة صارمةٍ وحتميةٍ تستدعي: " إقالة الثورات الحديثة من عثرائها واستكمال عصر التحرر من الاستعمار والانتقال من التحرر العسكري إلى التحرر الاقتصادي والسياسي والثقافي وقبل كل شيء التحرر الحضاري " (حنفي، 1991، صفحة 34). وهذا يستدعي طبعاً تفعيل المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي عند العرب أكثر بما يخلق وعياً قادراً على درء الفجوة بين الحضارة الغربية والشرقية، والقضاء على عقدة النقص لترتقي وتتفاعل المجتمعات البشرية كلها، موازاةً مع تطوّر المجتمعات الأوروبية فكرياً وثقافياً وعلمياً...

وفي معرض استقراء أهداف الاستغراب الحقيقية، نتوصّل إلى فهم صعوبة تحقيق أهدافه؛ ففي المجال العلمي والفكري يبرز اهتمام الغرب بالسيطرة الشاملة، وإقامة بل وفرض تحدياتٍ خطيرةٍ تقوم على العولمة التي مازالت تطرح تأثيراتها على العالم ككلٍ وكذا العالم العربي، وإنّ تأثير مثل هذه المتغيّرات الجارية سيكون في فكر الاستغراب أيضاً ولن يقتصر على مجالاتٍ فقط، بل إنّ أحدث تغيّراتٍ جذريةً على مستوى تصوّر ورؤيةٍ شاملةٍ لتعامل العرب معها، عكّسَ عدم قدرة العالم العربي على منافسة الغرب وإحداث تقدّم لتحقيق وحدتهم. ولئن عكّسَ الاستغراب بريقاً في الأفق، فقد عكّسَ أنّه نموذجٌ سلبيٌّ غير قادرٍ على تشكيل عاملٍ وحدةٍ أو نهضةٍ عربيةٍ، بل شكّل تهديداً لقيم العروبة المترسّخة عند العرب منذ مجيء الإسلام. ولا عجب أنّ مسيرة اندماج جماعةٍ من المستغربين وسعيهم لإنشاء وحدةٍ أن يواجهوا جملةً من التداعيات والعوائق.

وإذا اهتمنا بدراسة والبحث في تأثير المتغيّرات العالمية على مفاهيم ومبادئ علم الاستغراب خاصةً بعد الكولونيالية والعولمة -التي تُسرّع في انتقال الأفكار والقيم والأنماط الثقافية الغربية عبر الإعلام والاقتصاد الرقمي- فسنلاحظ حتماً ذبول مفاهيم وتراجع مفاهيم أخرى ترتبط كلّها بالوحدة العربية أو إعادة تطوّر العرب. وبالمقابل تظهر مفاهيمٌ وظواهرٌ جديدةٌ متغيّرةٌ تعكس حبّ التبعية للغرب والسعي لتقليدهم وتمثّل أفكارهم ومظاهر حضارتهم بما لا يفيدنا.

وهذا يدعونا للتساؤل عن إمكانية وجودٍ فعليٍّ لعلم الاستغراب لا يتّسم بالتنميط الثقافي للغرب؟ يتّسم علم الاستغراب بحالةٍ غير مستقرّةٍ من السيولة الفكرية في أفكاره وتطبيق مبادئه وأسسهِ وأهدافه، بما أصبح يكتنفه من اضطرابٍ ومظاهر عدم الاستقرار التي نجمت عن تضارب المفاهيم والمصالح الخاصة وما ترتّب عنها من قضايا وتساؤلاتٍ حول مدى جدواه وفاعليته، وهو ما جعل نتائجه تأخذ منعً آخر يرتبط أكثر بالتحوّلات العالمية الجديدة، ما جعله يرتبط بالتفكّك تارةً والاندماج تارةً أخرى بعيداً عن الوعي الحقيقي الذي قادهم للصّب في بوتقة التحوّلات العالمية الجارفة، وبعيداً عن بلورة تصوّراتٍ وأهدافٍ استراتيجيةٍ عربيةٍ أصيلةٍ وفعّالةٍ، يتعاملون بها ويجسّدونها لدرء المخاطر التي تهدّدهم، ومن ثمّ إعطاء/ إيجاد فرصٍ جديدةٍ للعرب أيضاً تتيحها لهم مثل مستجدّات الاستغراب من جهةٍ خاصّة، والسبب في ذلك: " أنّ الفكر العربي يعاني من الحيرة والاضطراب في فهم المتغيّرات الدولية الجارية وتحليلها وطرح تصوّراتٍ لكيفية التعامل معها " (إبراهيم، 1995، صفحة 55). وهو ما جنى على روح التغيير نحو الأفضل وتحقيق شموليةٍ عربيةٍ.

وقد أثرت هذه التغيّرات الدولية على العالم والغرب أيضاً، وقد جعلت المفكرين العرب يبتعدون لصالح الانتساب للثقافة الغربية ومستجدّات العصر الحديث والمعاصر، لذا لم يتم الاهتمام بعلم الاستغراب كفايةً، إذ: " ظلّ جانب معرفة الأمم الأخرى قاصراً إلّا على جمعٍ من المثقّفين الذين يرغبون في توسيع آفاقهم وفتح مجالاتٍ للحوار بين الثقافات، ممّا أدّى عند بعضهم إلى أن ينقلب السحر عندهم على الساحر، فيسمّون سفراء للثقافة الغربية، ممتّنين للتسويق لها في المحافل الفكرية بدلاً من أن يكونوا خبراء فيها يُبيّنون ما فيها من حقٍّ وما فيها

خلاف ذلك" (النملة، 1436، صفحة 17). وهذا يثير قضية أخرى أشدَّ خطورةً وبطرقٍ وميكانيزماتٍ أخرى لها تداعياتها لإمكانية انسلاخ العرب عن قيمهم لصالح الحضارة الغربية، بما يدفع للاعتقاد ببداية انتفاء النخوة العربية وما يترتب عنها لصالح الغرب أكثر مستقبلاً.

ومن جانبٍ قريبٍ، يشهد الواقع ضعف العرب وعدم قدرتهم على التكيف مع متغيرات العالم، خاصةً وأنَّ معظمهم كان يعاني بعد الحركات التحررية من مشكلاتٍ عديدةٍ، وحتَّى في سعي علم الاستغراب لإنهاء فكرة تناقض الشرق والغرب وتحليل ورصد مآلات الوضع العربي، إلا أنها لم تستطع كبح جماح الرغبة في الماضي قُدماً لصالحهم فقط. وهذا يعكس انتصار الغرب مرّةً أخرى ضدَّ أيِّ إيديولوجيا عربية على المستوى الثقافي والفكري والإنساني تسعى لتحقيق التصالح مع الغرب والتطوُّر الحضاري... وهذا ما خلق ردود أفعالٍ عند العرب وممَّن اهتمَّ بعلم الاستغراب، فراح بعضهم يبحث عن هويته القومية العربية، ما ساهم في إذكاء وبروز جماعاتٍ تطرح أفكارها التنويرية بالعودة إلى التراث الأصيل كبديلٍ حضاريٍّ، مستشعرينَّ التحديات التي تواجههم، ورافضين الفكر الغربي المعادي للعرب والمسلمين لأنَّ شرَّه كان مستطيراً ويسعى دائماً إلى: "ضرب الفكر القومي العربي، وتشويه الثقافة العربية والحيلولة دون قيام الوحدة العربية" (إبراهيم، 1995، صفحة 80). ولأنَّ: "النظام الدولي الجديد يعادي العرب والمسلمين بل وبلدان الجنوب عامةً" (إبراهيم، 1995، صفحة 56). لذا دعوا للتركيز على ضرورة فهم وتحليل التصوُّرات والرؤى الغربية عن العرب والمسلمين، وطرحوا بدائل استراتيجية وخطط من شأنها إعادة توثيق وتعزيز الوحدة العربية بفعاليةٍ شاملةٍ.

إذن، يشهد الواقع على أنَّ مسار حركة الأحداث في توجَّهاتها ونتائجها، تعكس عدم تيقن العالم العربي بعد عن كلِّ ذلك وبحثهم عن مستقبلٍ بديلٍ مرتبطٍ ومرتبٍ أساساً بالفكر الغربي الذي هو في حقيقته يخدم مصالحهم لا مصالحنا، وتطوُّرهم لا تطوُّرنا، بل إنَّه يعمل على جذبنا وربطنا بأساساته فقط ليضمنوا استمرار تبعيتنا لهم لأنَّ: "إثارة أكثر التحديات التي تواجه العالم اليوم، والمشكلات التي يتعرض لها العالم العربي والإسلامي، غالباً ما يكون مصدرها الغرب، وهو ما يبادر إلى وضع الحلول لها انطلاقاً من ثقافته" (العيان، صفحة 444).

وما يشهده العالم العربي بالأمس واليوم هو دليلٌ على فشل علم الاستغراب عند العرب وإن ادَّعى كثير منهم العكس، وحسبنا أن نستدلَّ على الحقائق التي عاشتها كثيرٌ من الدول في أراضيها بما جعلها تستفيق وتسعى لبناء نهضةٍ جديدةٍ لنفسها بنفسها بعيداً عن التراجيديا الأمريكية المهيمنة على كلِّ شيءٍ، فما تطوَّرت أقوامٌ بغير لغاتها وما تطوَّرت بغير التمسك بمقوماتها وأصالة هويتها، وهذا ما تُثبتُهُ أيضاً مختلف الحركات التحررية في العالم حين نهضت المستعمرات في وجه مستعمرها وحققت بنفسها ولنفسها التحرر والاستقلال: "إنَّ الدول لا تترك رداءها وإنما تخلِّقه بأيدي أبنائها من خلال التجديد والابتكار والتطوير المستمر" (هلال، 1995، صفحة 19).

وهذا الأمر على خطورته، سيؤدِّي إلى تفاقم المشكلات العربية، بما يمكن أن يترتب عنه من تداعياتٍ سلبيةٍ على قضية الاستغراب في الوطن العربي، وهذا يُحتِّم على العرب ضرورة التعامل بحذرٍ مع العالم الغربي ككلٍّ، بعيداً عن أيِّ تبعيةٍ لأسس نظام العولمة.

5. مقترحاتٌ وحلولٌ:

على الرغم من تشعُّب الأفكار والرؤى التي طرحها مستغربون عرب للتعامل مع مثل هذه المستجدات، فقد كان لازماً طرح أفكار موحَّدةٍ تستدعي الوحدة العربية: "وذلك بقصد تدعيم قدرة العرب على التكيف مع المتغيرات الدولية الجديدة من ناحية، وتعظيم الفرص التي تتيحها لهم بعض هذه المتغيرات من ناحيةٍ ثانية، وتقليص السلبيات والقيود التي تفرضها عليهم متغيراتٌ دوليةٌ أخرى من ناحيةٍ ثالثةٍ" (إبراهيم، 1995، صفحة 82). وهذا

يحتاج إلى إعادة صياغة ذهنية عربية شاملة تُفَعِّل دور العرب عالميًا، وفق استراتيجية عربية خاصة وخالصة توثق علاقات العرب مع بعضهم بأصالة ثقافتهم وحضارتهم الإسلامية من خلال مثلاً: "إحياء المشروع الحضاري الإسلامي باعتباره يمتلك القدرة على طرح بديل للنموذج الحضاري الغربي" (إبراهيم، 1995، صفحة 83). انطلاقاً من العودة إلى: "الإيمان بتميّز الثقافة الإسلامية وإمكاناتها، وأن لديها من المقومات والأسس ما يؤهلها لأن تمسك زمام المبادرة في دراسة الغرب" (العيان، صفحة 442).

وهذا يستدعي من العرب جميعاً: "الاهتمام بدراسة مقومات الذات وتاريخها، والتبحر في علوم الأمة ومعرفة قيمة تراثها، فلا يكفي في دراسة الغرب التبحر في علومه دون وجود رسوخ علمي في تراث المسلم، ينطلق منه ويؤسس منهجه عليه، بل يصح أن يقال بأن معرفة الإنسان لذاته أساس معرفته بغيره" (العيان، صفحة 442). وهذا لأن: "تراثنا قد يكفيننا في الميدان الروحي الديني عقيدة وشريعة إذا نحن عرفنا كيف نمارس التجديد بالصورة التي تتناسب مع واقع عصرنا مع نوازل ومستجداته ومتطلبات الحياة فيه" (وآخرون، 1990، صفحة 121).

ويجب على المسلمين بدايةً مقاومة الهيمنة العالمية عليهم بحكمة وبطريقة فعالة تعتمد مقومات الإسلام الموحد للعرب ومحقق حضارتهم: "لأن الإسلام دين لا يعرف العزلة ويعترف بالتعددية الثقافية والفكرية وباختلاف الأمم" (رفيق، 2007، صفحة 13). وهنا يجب عليهم أيضاً: "أن يبحثوا عن البديل الناجح المثمر من الإسلام وأن يتخذوا اللوازم لعالميته بدل العولمة الخبيثة، فإن الإسلام هو الدين الوحيد الذي في وسعه أن يقدم الحل الناجح، وفي وسعه أن يقدم للبشرية كلها ما فيه النجاح والفلاح لهم، وما فيه الخير والسعادة والطمأنينة" (رفيق، 2007، صفحة 13).

ومن الضرورة أيضاً النظر إلى كل فرد عربي على أنه أساس قوام الوحدة العربية لمواكبة التطور الجديد في العالم ككل، وهذا يستلزم استثمار الفرد العربي في ضوء تعاليم مقوماته العربية والإسلامية أولاً وقبل كل شيء، مع اعتزاز واعتداد بأصالة هويته التي تمنع نظرة الدونية لنا من الآخر، ومن ثمّ العمل على تطوير المهارات البشرية في مختلف المجالات، وهذا بعيداً عن رقابة وتصرف أي عنصر أجنبي أو غربي مهما كان الأمر، مع الاستعانة بالقدرات التي من شأنها التعامل مع مخرجات التطور العربي الجدي، لأن أي: "معرفة حقيقية للغرب تمكّننا من إدارة علاقة جيدة معه تحفظ الحقوق وتردّ المظالم" (بخوش، 2020، صفحة 258). ومع ذلك فإننا نعلم يقيناً أن: "العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظّم هذه العلاقات معها" (بخوش، 2020، صفحة 257). وليس ضرورياً أيضاً التخلص من آثار الغرب دفعةً واحدة: "فذلك يلزمه تاريخ طويل لأنه مُنْدرَس في الوعي واللاوعي الجمعي، إذ إننا نمارس ثقافة الغرب بوعي ودون وعي منّا من جيل إلى جيل. وليس من الضروري أيضاً أن نضع نهاية الغرب شرطاً لبدايتنا، أو أفوله وتراجعته شرطاً لتقدمنا" (لعبادلية، 2024).

ولا شك أن هذا الأمر بات مطلوباً من الدول العربية كافة فتنصهر في بوتقة واحدة ومتّحدة لتعيد بناء نفسها لمواجهة الآخر، وهذه هي مهمة كل من يحمل راية الإصلاح حقيقة في الوطن العربي: "إن رواد الإصلاح في العالم الإسلامي مدعوون لإدراك روح الحضارة الغربية واستيعاب تجلياتها وتقاسيمها المختلفة" (بخوش، 2020، صفحة 252).

ومن هنا بات وجوباً: "التعامل مع الآخر بالمنطق نفسه الذي تعامل به معظم المستشرقين والغربيين عمومًا مع المسلمين وعلوم المسلمين وثقافتهم وعاداتهم وأدابهم" (النملة، 1436، صفحة 18). فنذكر موقعنا من الغرب وموقع الغرب بطريقة واعية، لإرساء قواعد التجديد الحضاري في فكرنا الإسلامي المعاصر انطلاقاً من دراسة مشاكل

المسلمين وفق رؤية حضارية شاملة، كما تبناها مالك بن نبي مثلاً الذي حذّر من خطر الحضارة الغربية لأنّ أثرها عالمي حتى على الغرب: "إنّ خطر هذه النزعة لا يصيب المسلم فحسب وإنما خطرهما يلحق الإنسان من حيث هو إنسان، حتّى الإنسان الغربي يلاحقه خطرهما" (بخوش، 2020، صفحة 254). وهكذا فقط تورد الإبل، ولا يُنبئك مثل خبير.

والأكيد أنّ ثمة مجالات هامة وأساسية ينبغي البدء بها بالذات، وعلى العرب متابعتها حقاً في سبيل تحقيق حلّ المشكلات بعيداً عن أعين ورقابة الغرب، لأنّ الواقع يشير إلى تدخّل الغرب في العرب وفي مختلف جوانب الحياة، كونها أصبحت سمة بارزة ومميّزة للعولمة في ظلّ تطوّر الراهن؛ إذ إنّ مختلف المشاكل والقضايا العربية أضحت ذات طابع غربي/ دولي، وإنّ من دول ذات مسافة جغرافية متباعدة، فصار غنياً عن البيان: "أنّ العالم أصبح الآن من التعقّد والتركيب والتداخل، بحيث لم يعد ممكناً معه القول بإمكان أن تقوم دولة واحدة بالتحكّم فيه بمفردها" (هلال، 1995، صفحة 22). بل أصبح الأمر يستدعي الجهود الدولية المشتركة لمواجهتها وحلّها، وإلا بات ذلك خطراً يهدّد العالم ككل كما يزعمون في الظاهر، والواقع أنّه لتحقيق مكاسب شخصية عادة: "إنّ التطوّر الحاصل الآن في مجال الحماية الدولية لحقوق الإنسان، يشكّل مثلاً نموذجياً يمكن الإشارة إليه في معرض التدليل على درجة التغيّر التي أصابت السيادة الوطنية لمصلحة المجتمع الدولي" (هلال، 1995، صفحة 16).

ولا يمكن لدارس أن يتجاهل حقيقة ما آل إليه علم الاستغراب والتغيّر الذي طرأ على فكره ومساره، والنتائج التي ترتبت عنه ليست لصالح البلاد العربية لا اجتماعياً ولا اقتصادياً ولا فكرياً ولا حتى إنسانياً، بل صارت نتائجه تؤثر سلباً في ظلّ التهديدات الاستراتيجية للفكر الغربي بما تؤكّده الحقائق بالفعل.

إنّ الأيديولوجيات التي وضعها الغرب في ظلّ الاستشراق علماً ومنهجاً ودراسةً وتطبيقاً، هي ما يجب أن يكون عليه أيضاً علم الاستغراب ويقف عليه المستغربون، ليمثلوا منها إيديولوجيات جديدة تنهض بهم بعيداً عنهم. وهي ما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون خدمةً لهضة بلدانهم العربية عن أيّ مصلحة فردية أو خارجية... وهو ما يجعلنا نؤسّس لتجديد فكري حقيقي ينهض بنا لمواجهة تحديات الغرب في مختلف مجالات المعلوماتية والعلوم التكنولوجية الكاسحة. وهذا يحتاج إلى أن تتركز صورة الاستشراق بطريقة عكسية في علم الاستغراب، ليعيش ما عاشه الاستشراق ويخدم أهدافه بصدق: "فالظروف الحالية التي يمرّ بها العالم العربي تُحتمّ عليه أن يفهم بدقة هذه الحضارة الغربية التي خضع لها في نواحٍ عديدة من حياته" (النملة، 1436، صفحة 23). فيفهم جيّداً مثلاً مختلف آليات وأسس الهيمنة الثقافية والمعرفية التي خلفها الاستعمار في ظلّ المركزية الأوروبية المهيمنة التي فرضت بقوة النموذج الغربي بوصفه كونياً ومتفوقاً، وأعاد بناء عقدة النقص لدى الآخر العربي خاصّةً.

ومن هنا يبقى بيان هدف الاستغراب في البلاد العربية في ظلّ تحديات النظام العولمي مرتبهاً بواقعه ومآلاته ليقوم بإبراز آثاره ونتائجه السلبية: "سعيّاً إلى فهم الآخر فهمًا مباشرًا، من أجل التعامل معه تعاملًا يعود نفعه علينا نحن مباشرةً وبالدرجة الأولى" (النملة، 1436، صفحة 25). فينتقل من موقف ردّ الفعل إلى مشروع معرفي نقديّ قادر على فهم الغرب بكل تعقيداته وتحولاته، حتّى يتمكّن من التفاعل معه بوعي وانتقائية.

ومن خلال التعرّف على خطر العولمة سيكون العرب على بصيرة بمزايا الإسلام وصلاحيته للعالمية ومطابقته للفكرة الإنسانية: "كما ينبغي أن لا يكونوا غافلين عن الوضع الراهن من القضايا التي تهدّد وجود الشعوب المسلمة والأمة الإسلامية كأنهم لم يسمعوا بشيء من هذا ولم يلقوا لها بالأل. ويجب على المخلصين من أبناء هذه الأمة أن يبذلوا جهودهم من أجل التبصير بالمخاطر، والإبداع في بثّ القيم الراشدة بالأسلوب المناسب عبر الآليات الجديدة" (رفيق، 2007، صفحة 13).

لذا فنحن: " بحاجة إلى تكاثف الجهود وتوحيد الطاقات لعملٍ جماعيٍّ علميٍّ مؤسَّسٍ يأخذ على عاتقه دراسة النموذج الغربي المعرفي وتحليله وتقييمه" (بخوش، 2020، صفحة 259). وهذا ما يجعل الوقت مناسباً لإحداث ثورة فكرية عربية لها ميكانيزماتٌ خاصةٌ لتحقيق الأهداف، فتستوعب الماضي لتخطي ما كان من نظرة الغرب نحو الشرق ومواجهة نظريته إلينا، في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعالمية... وتبقى هناك الكثير من الحلول الفاعلة حقاً كما أشار إليها كثيرٌ من الدارسين والمختصين ممن تهتمهم مصلحة العالم العربي وخوفاً من مستقبلٍ مجهولٍ ينم عن تداعياتٍ خطيرةٍ أكثر في ظلّ تنامي أفكار العولمة.

6. خاتمة:

إنّ هذه المراجعة السريعة لواقع الاستغراب في الفكر العربي وانعكاساته، توضّح أنّ محور علم الاستغراب لم يتطرّق حقيقةً لدراسة القضايا التي تهّم عالمنا العربي والإسلامي حقّاً كما يجب حتّى يُحقّق نتائج أفضل، بل كان اهتمامه بالأساس ينصبّ على التفاعل العالمي والتعامل معه على نحوٍ يخدم المصلحة الفردية أكثر، كما انصبّ على توصيف تطوّر الحضارة الغربية والتأثر الماديّ بها بما لا يخدم مجتمعاتنا العربية، ما أدّى إلى الانسلاخ عن الهوية والمفومات والأصالة العربية لصالح معطيات الحضارة الغربية، مع تناسي الدور الذي كان منوطاً بهم.

وعلى الرغم من أنّ بعضاً ممن انتسب لفكر علم الاستغراب قد درسَ ما أُلث إليه البلاد العربية من تدهور أوضاعها، إلا أنّهم لم يتطرّقوا أيضاً لإعطاء البدائل وطرح القضايا بحساسيةٍ شديدةٍ تعالجها من جذورها، للتغلّب على القيود التي تكبل تطوّر العرب مجدّداً. وهذا يدلّ على عدم اهتمام علم الاستغراب الكافي والفعليّ بالبدائل الحقيقية التي من شأنها تحقيق المنفعة العربية بعيداً عن قيود العالم الغربي وتحدياته ورهاناته التي تواجهها. وهكذا يتعيّن على العرب القيام بمراجعة نقديةٍ واعيةٍ لمختلف الأفكار والتصورات لتكون بدائل قصداً التوصل إلى ممارسةٍ تطبيقيةٍ جادةٍ تغيّر واقعهم الفكري الهامشي وغير الفعّال، إلى آفاقٍ مستقبليةٍ واعدةٍ تمكّنهم من إعادة الاعتبار لهم.

أيّاً كان الشكل الذي رسا عليه علم الاستغراب في الأخير، فإنّه كان بمثابة دعوةٍ لردم الفجوة مع الغرب فقط. في ظلّ انخفاض حساسية العالم العربي بضرورة إعادة بلورة أهداف علم الاستغراب، وفي ظلّ تزايد ارتباطهم بالخارج وبالغرب، وفي ظلّ مختلف المشاكل التي تواجههم، وزيادة تدخّل الغرب في توجيه مصيرهم، فإنّ العالم العربي سيبقى يعاني أكبر وأكبر من فقدان القدرة على تحديد مساهمهم الفكري والعلمي والاقتصادي على حدٍ سواءٍ. إنّ هذه المراجعة أثارت لدينا عدّة أسئلةٍ استذكاريةٍ تدور أساساً حول: أين نحن وأين كنّا وأين أصبحنا من تداعيات ونتائج علم الاستغراب؟ وهل تُحقّق الاستراتيجيات الواجب اتّباعها إستعادة المجد العربي وتحسين وضعهم لمقاومة تيار وتحديات العولمة؟

وخلاصة القول، إنّ مستقبل علم الاستغراب في العالم العربي سيبقى مرهوناً بمدى قدرته على التحوّل الحقيقي والفعليّ إلى حقلٍ معرفيٍّ مؤسَّسٍ، يعتمد المنهجية العلمية الصحيحة مثلما قام عليها علم الاستشراق، وينفتح على الدراسات المقارنة والبيئية، ويسهم في بناء علاقة أكثر توازناً وحواريةً مع الغرب ومواجهةً للغرب في آنٍ واحدٍ في ظلّ عالم ما بعد الكولونيالية والعولمة.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- أبو بكر رفيق. (2007). مخاطر العولمة على الهوية الثقافية للعالم الإسلامي. *مجلة دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ ، المجلد الرابع*.
- حسن حنفي. (1991). *مقدمة في علم الاستغراب*. القاهرة: الدار الفنية للنشر والتوزيع.
- حسنين توفيق إبراهيم. (يناير/ مارس، أبريل/ يونيو، 1995). النظام الدولي الجديد في الفكر العربي. *مجلة عالم الفكر ، المجلد 23 (العدد 3 و 4)*.
- سورة الحجرات. آية 13.
- صلاح بن عبد الله العيبان. (بلا تاريخ). *غايات علم الاستغراب*. *مجلة الدراسات الإسلامية*.
- عائشة لعبادلية. (2024). نهاية الاستشراق وبداية الاستغراب، قراءة في مشروع حسن حنفي الفكري مقدمة في علم الاستغراب. *مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 08 (العدد 01)*.
- عبد القادر بخوش. (أبريل، 2020). نحو فقه الاستغراب: مقارنة في المشروع النهضوي الحضاري عند مالك بن نبي. *مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية ، المجلد 06 (العدد 02)*.
- علي إبراهيم النملة. (1436). *الاستغراب: المنهج في فهمنا الغرب*. الرياض، المملكة العربية السعودية: المجلة العربية.
- علي الدين هلال. (يناير/ مارس، أبريل/ يونيو، 1995). النظام الدولي الجديد، الواقع الراهن واحتمالات المستقبل. *مجلة عالم الفكر ، المجلد 23 (العدد 3 و 4)*.
- محمد عابد الجابري، حسن حنفي وآخرون. (1990). *حوار المشرق، نصوص*. الجزائر: منشورات الاختلاف.